اللغة العربية بين العامية والفصحى

مخلص الرحمن*

[ملخص البحث: *مما لا شك فيه أن العربية الفصحى – وهي لغة القرآن والحديث والتشريع الإسلامي – ما زالت ولا تزال تبقى لغة العلم والأدب والإنتاج الإبداعي، ولغة الخطابة والتدريس والمحاضرة، ولغة الإدارة والشؤون العامة في البلدان العربية. وهي لغة الدين والعقيدة للمسلمين في كافة أنحاء العالم، والعروة الوثقى للتقريب بينهم، و وسيلة التفاهم فيما بينهم. أما اللهجات فهي تختلف باختلاف المناطق والأقاليم شرقا وغربا، شمالا و جنوبا، مدنا وقرى بحيث يصعب التواصل والتفاهم بين أبناء هذه اللهجات. فالشامي يصعب عليه أن يفهم لغة المغربي وقس على ذلك. و لكن الفصحى يفهمها الجميع، وهذه حقيقة يقررها الواقع و إن تجاهل ذلك أعداءها لأنهم يريدون تجميد نمو العربية الفصحى وتعميم اللهجات حتى تصبح لغات منفصلة بغية الفصل بين العرب والمسلمين وعزلهم عن العروة الوثقى التي تربطهم و توحّدهم. فهذا البحث يحاول كشف المخاطر السيئة والآثار السلبية التي تحملها الدعوة إلى العامية في طيها، وإبراز الأهمية التي تحتلها العربية الفصحى دينا وثقافة و استراتيجيا.*]

الكلمات المفتاحية:

اللغة العربية، اللهجة، العامية، الفصحى، الاستعمار، العرب.

مفهوم الفصحى والعامية:

الفصحى هي اللغة العربية المطابقة للقواعد والضوابط، وتستخدم في تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري والأدبي، وهي لغة القرآن. "فاللغة العربية الفصحى هي كل لغة نهجية تخضع لقواعد الصرف والنحو ولأصول التركيب

* . الباحث في الدكتوراه، مركزالدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي.

اللغوي. وهي لغة الأدب والعلم و وسائل الإعلام والصلوة و ما إليها وهي لغة خالصة سليمة من كل عيب، لا يخالطها لفظ عامي أو أعجمي، و عكسها اللغة العامية و هي اللغة المحكية أو لغة المحاورة اليومية" [1]. أي العامية تستخدم في الشؤون العادية ويجري بها الحديث اليومي. فالأول يخضع لقوانين تضبطها وتحكم عبارتها، والثانية لا تخضع لمثل هذه القوانين لأنها تلقائية متغيرة تتغير تبعا لتغير للأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم [2]. فهي تختلف من بلد إلى بلد و من منطقة إلى منطقة، فالعامية في مصر تختلف منها في العراق و هلم جرا.

الصراع اللغوي بين الفصحى واللهجات في اللغة العربية:

مما لا شك فيه أن اللغة العربية كانت منقسمة إلى لهجات متعددة في العصر الجاهلي يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات، واختصت كل قبيلة وكل جماعة متحدة في ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات. غير أنه قد أتيح لهذه اللهجات المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفضل التجارة و تبادل المنافع ومجاورة القبائل العربية بعضها لبعض وتنقلها في طلب الكلأ وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية. فاشتبكت من جراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي وكتب النصر فيه للهجة قريش، فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة، واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابتها ونثرها في مختلف القبائل العربية، فأصبح العربي، أيا كانت قبيلته، يؤلف شعره وخطابته ونثره الأدبي بلهجة قريش [3].

فلما نزل القرآن الكريم بلغة قريش عزز سيادتها و ثبت دعائمها وقوّى سلطانها، فبفضله ازدادت ضبطا وإحكاما، وتعززت مادتها، واتسعت أغراضها وارتقت معانيها و أخيلتها وأساليبها. وبفضله ظلت لغة للأدب والكتابة حتى يومنا هذا وصار القرآن هو الحافظ لها من الضياع، وهي معجزة لم تتفق لغيرها من

[1] -معجم الرائد، ص 160.و معجم اللغة العربية المعاصرة، 188.

[2]. الدكتور نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص، 3.

[3]. الدكتور علي عبدالواحد وافي: فقه اللغة، ص، 87.

اللغات وستظل باقية على سيادتها ما بقي القرآن، والقرآن باق لقوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون" [1].

فأصبحت اللغة العربية لغة الخطابة والكتابة ولغة الأدب والفن، ولغة التأليف والتصنيف، ولكن اللهجات المختلفة بقيت للتداول اليومي بين عامة الناس وخاصتهم وهي تختلف باختلاف البيئة والمحيط والجغرافيا وما إلى ذلك من العوامل المؤثرة. فوجود الفصحى واللهجات العامية ليس أمرا جديدا أو طارئا بل هو أمر قديم قدم اللغة نفسها، بل كانت الفصحى واللهجات تتعايش جنبا إلى جنب، والفصحى كانت مفهومة لدى الجميع، فهم كانوا يكتبون بالفصحى و يتحادثون فيما بينهم بلهجاتهم العامية. وكانت الفروق بين اللهجات تكاد تقتصر على الخصائص النطقية والعادات الصوتية.

ولكن الجديد هو مشكلة اتساع الفروق بين العامية والفصحى ومحاولة البعض للدعوة إلى اتخاذ العامية وإحلالها محل الفصحى في التأليف والتدوين لسهولتها و يسرها و ترك الفصحى لصعوبتها وتعقيدها، والسهولة عندهم التخلي عن قواعدها وعن الأساليب الصحيحة في التعبير، حتى دعا بعضهم إلى اتخاذ الحروف اللاتينية في كتابة العربية. وبالتالي ثارت المعركة بين أنصار الفصحى وخصومها منذ زمن طويل، وهي تتجدد وتتكرر من حين لآخر.

الدعوة إلى العامية وأنصارها:

حملت جماعة من المستشرقين والمستعمرين لواء إيقاف اللغة العربية من التوسع و الانتشار تحت أسماء لامعة خادعة نحو الإصلاح والتمصير والتيسير والتسهيل و دراسة اللهجات وعلم اللهجات المقارن و ما إلى ذلك. "فجرت المحاولات إلى ضرب اللغة العربية في مواطنها وهدمها في معاقلها حيثما وصل نفوذ الاستعمار و سلطانه حيث فرضت لغة المحتل واعتبرت اللغة الأولى في المدارس والمعاهد التعليمية و أزيحت اللغة العربية أساسا، ثم جاءت الخطوة التالية مباشرة و هي الدعوة إلى العامية و تشجيعها والاهتمام بها وبثها في مختلف جوانب الحياة من حديث وكتابة

[1]. الدكتورنفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص، 5.

وإذاعة ومسرحيات وقصص. كما تقدم التبعيون بالدعوة إلى انتقاص اللغة الفصحى و محاولة وصفها بالتعقيد و وصف العامية بالسهولة واليسر" [1].

وتقدمت جماعة من الغربيين ما بين مهندسين وقضاة للتأليف بالعامية وجمع الأزجال والفكاهات والكلمات الدائرة على الألسنة بين العامة و محاولة تصوير تراث وهمي زائف من هذا كله حتى تنتقل الدعوة من الكلام عن اللهجة العامية إلى ما يطلق عليه لغة عامية. و من المستشرقين الذين حملوا لواء هذه الدعوة المهندس وليم ويلكوكس (1852م- 1932م)، وولهلم سبيتا الألماني مدير دار الكتب المصرية، و أنطوان مطر، و كارل فولرس (1857- 1909م)، و وليم تمبل جردنر (1873- 1928م)، بتأليف دراسات و كتب عما أطلق عليه اللغة المحكية أو العامية المصرية كما شجعت حكومات الاحتلال على إنشاء جرائد باللغة الدارجة صدر منها عام 1900م وحده سبع عشرة جريدة [2].

إن الدكتور ولهلم سبيتا و أنطوان مطر يمثلا قوسين، أولهما يبدأ في عام 1880م عندما نشر كتابه "قواعد اللغة العامية في مصر"، وإن كان قد بدأ قبل ذلك طبعا، و ثانيهما في أواخر القرن العشرين عندما نشر مقاله عام 1974م. و بين هذين القوسين تقع مجموعة من الأسماء التي وعتها ذاكرة هذه المشكلة وأشارت إليها الدراسات الخاصة بها [3].

كانت محاولة سبيتا أن يوجد للعامية تراث أو أدب ليدعى أنها لغة، فقام بجمع ونشر العاميات من الأحاديث والفكاهات والكلمات وجعلها مقدمة لعمل من جاء بعده، كما عمد إلى وضع حروف إفرنجية للعامية المصرية لأجل إحيائها، وألف في صرفها كتابا كما ألف في أمثالها وقصصها العامية، ونشر ذلك باللغتين الألمانية والفرنسية لترغيب أوربا في تنفيذ مشروع تعليم اللغة العامية بالحروف الأجنبية وجعلها لغة العلم والتعليم [4].

---

[1]. أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 126.

[2]. ينظر:أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 126- 128 و الدكتور عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص 278.

[3].الدكتور عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص، 278.

[4]. أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 131.

و بعد سبيتا ظهر مستشرق آخر ألماني هو كارل فولرس وكان أمينا للمكتبة الخديوية بالقاهرة، وألف عدة كتب أو رسائل في العامية المصرية، وأشهرها كتابه "اللهجة العامية الحديثة في مصر" [1].

ثم يأتي مستشرق انجليزي وليم ولكوكس (1852- 1932م) مع أنه كان رجلا مهندسا في الإنشاءات الهيدروليكية يخوض فيما خاض فيه أسلافه من الدعوة إلى العامية ونبذ الفصحى وهو يقول في إحدى محاضراته: إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم يؤلفون و يكتبون باللغة العربية الفصحى و أنهم لو ألفوا وكتبوا بالعامية لأعان ذلك على إيجاد ملكة الابتكار و تنميتها. وهو يختم محاضرته بشرح سبب عدم وجود قوة الاختراع لدى المصريين، وهو استخدامهم اللغة العرية الفصحى في الكتابة والقراءة، وينصحهم بنبذ هذه اللغة الصعبة الجامدة، واتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي اقتداء بالأمة الانجليزية التي أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التي كانت لغة الكتابة و العلم يوما ما قائلا: وأنتم يأيها المصريون لن تزالوا قادرين على إيجاء قوة الاختراع لديكم كما فعلت انجلترا، فإنه يوجد فيكم أناس كثيرون توفرت فيهم الشروط المارة، ولكن بسبب عدم وجود لسان علمي مشهور فيما بينكم لم تتحصلوا على شئ وأضعتم أعمالكم سدى، والسبب في ذلك أن الكتب العلمية الدنيوية يؤلفها أربابها بكلام مثل الجبال، و في آخر الأمر لا يلد هذا الكلام الصعب إلا فأرا صغيرا، وما نشأ ذلك إلا من كون اللسان العلمي غير مشهور فيما بين العامية، فبمجرد وضع الأفكار في الكتب تموت ولم تعد تحيا فكأنهم يكفنونها في الورق ويدفنونها في جلود الكتب" [2]. يتضح مما سبق أن هدفه المنشود من الدعوة إلى العامية هو القضاء على الفصحى وإقصاء أبنائها من تراثها الديني والعلمي والفكري والأدبي.

و تعد محاولة القاضي ولمور من أقوى هذه المحاولات و أهمها و قد دعا إلى استعمال العامية بدلا من العربية الفصحى، وقد أطلق على كتابه "لغة القاهرة" أصدره عام 1902م، وقد وضع للعامية القاهرية قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية، ومما قال ولمور: العربية الآن مهملة

[1]. الدكتور عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص، 278.

[2]. الدكتور نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص، 32- 36.

كما كانت اللاتينية مهملة في أواخر القرون الوسطى، ولو لم تنشط أمم أوربا لاستعمال لغاتها الخاصة لما تقدم العمران في أوربا، إني أتأسف جدا إذا نسيت العربية الفصحى في هذه البلاد و أرى أنه يجب أنه تدرس في مدرسة جامعة مع غيرها من اللغات السامية كما تدرس اللغة الميتة. والظاهر أن شمس المعارف اللغوية كادت تزايل ديار الشرق فقد أخبرني أستاذي منذ سنين كثيرة أن العلماء الكبار حقيقة صاروا يعدون على الأصابع [1].

و قد جبهت ولمور ردود الكتاب وأفسدت سعيه و كشفت عن زيف ما ادعاه فقالت المؤيد: إن مسألة اللغة العربية هي مسألة الدين الإسلامي بعينه، فإذا فرط المسلمون في لغتهم الفصحى، لغة القرآن و الحديث والشريعة أضاعوا دينهم بأقرب مما يتطلبه المرسلون المسيحيون منهم [2].

إذا أمعنتم النظر في التاريخ تجدون التدرج في تقديم الاتفاق الاستعماري ضد لغة القرآن، فقد بدأ المخطط متدرجا حسب ما يلي:

1- العربية صعبة – جامدة – ميتة.
2- العربية ليست لغة للعلوم.
3- الانجليزية لغة التعليم.
4- لابد من تبني الرموز اللاتينية في الكتابة العربية.
5- يجب اتخاذ اللاتينية لغة أدبية، كما أصبحت الانجليزية لغة للتعليم [3].

فهولاء المستشرقون من الألمان و الانجليز لم يعملوا وحدهم بل وجدوا تأئيدا في أرض مصر و لبنان والشام من بعض الكتاب والأدباء و على رأسهم سلامة موسى الذي لم يكن داعية إلى نبذ الفصحى فحسب بل كان داعية إلى الخط اللاتيني، فهو يقول في كتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية" قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجرئ، إلا في رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى مثل قاسم أمين أو أحمد أمين، حين يدعو كلاهما إلى إلغاء الإعراب أو مثل عبد العزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني. والواقع أن اقتراح الخط اللاتيني هو

[1]. أنورالجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 131- 132.
[2]. المصدر المذكور، ص، 132.
[3]. الدكتور عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص، 280.

وثبة إلى المستقبل. لو أننا عملنا به، لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا، التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها، وفتح لها أبواب مستقبلها. واقتراح عبد العزيز فهمي يحتاج أولا إلى العمل بإلغاء الإعراب الذي تعلمناه و لكن لم نعمل به قط. وإلغاؤه يجعل الهجاء العربي في الخط اللاتيني سهلا. ثم هو يغنينا عن وضع الحركات في أعلى وأسفل الكلمة، لأن الحركات في الخط اللاتيني حروف تدخل في صلب الكلمة. ثم يذكر سلامة موسى ميزات اللاتيني ملخصه كما يلي:

1- أول ذلك أننا نقترب نحو التوحيد البشري. فإن هذا الخط هو وسيلة القراءة والكتابة عند المتمدنين الذين يملكون الصناعة. أي العلم والقوة و المستقبل. و هذا الخط تأخذ به الأمم التي ترغب في التجدد كما فعلت تركيا.
2- حين نصطنع الخط اللاتيني، يزول هذا الانفصال النفسي الذي أحدثته هاتان الكلمتان المشئومتان "شرق وغرب".
3- الخط اللاتيني يسهّل استعمال الكلمات العلمية.
4- الخط اللاتيني أكثر سهولة للتعلم [1].

فإن سلامة موسى قد أثر في كثير من الأذناب الذين بدأوا حياتهم يدعون إلى الإصلاح اللغوي بأشكال مختلفة من أمثال لويس عوض الذي ألف كتاب "بلو تو لاند" ودعا إلى تحطيم عمود الشعر العربي و كسر رقبة البلاغة، و لطفي السيد الذي كتب عام 1913م عدة مقالات في الجريدة يدعو فيها إلى استعمال الألفاظ العامية وإدخالها حرم اللغة الفصحى، والخوري مارون غصن الذي ألف كتاب "حياة اللغة وموتها: اللغة العامية"، وأنيس فريحة الذي ألف "نحو عربية ميسرة 1955م" وكلاهما دعوا إلى استخدام العامية بالحروف اللاتينية، وعبد العزيز فهمي الذي كان من الأعضاء في مجمع اللغة العربية في القاهرة وكان قد قدم مشروعا إلى المجمع لاتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية، وسعيد عقل وهو قدم كتاب شعر "ياره" بالعربية مطبوعا باللاتينية.

[1]. سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، ص، 139- 141.

ماذا وراء الدعوة إلى العامية؟ كل من له إلمام بالتاريخيعلم أن هناك غاية خفية هي الباعث على خدمات المستشرقين للغة العربية، وتلك الغاية معروفة أيضا لأولي الألباب من أهل الشرق، وهي حرب على الإسلام و محاولة لتجزئة الأمة العربية و تفتيتها إلى دويلات والقضاء على تاريخها و حضارتها من خلال هدم اللغة العربية الفصحى وتقويض دعائمها.

وكان المستشرقون يعادون العربية من حيث هي دين ومن حيث هي معارضة لنفوذ الاستعمار، فإنهم وجهوا إليها الحرب بأسلوب دقيق هو أسلوب البحث الذي يحمل طابعا علميا برّاقا ويحاول أن يخضع اللغة العربية لما خضعت له اللغات المختلفة غاضّين الطرف عن الفارق العميق والواسع و البعيد المدى الذي يحكم اللغة العربية ولا يحكم لغات العالم كله وهو القرآن [1]. في الحقيقة كانوا يهدفون إلى تخفيض روح التقدير والإعزاز للفصحى و توطئة الأقلام والأذهان للعامية تمهيدا لإصلاحها في مخطط طويل المدى حتى يتقطع المسلمون والعرب في مقدمتهم عن رابطهم بالفصحى أي رابطهم بالقرآن [2]. فكان الاستشراق طليعة الاستعمار الأوربي للعالم الإسلامي وأنه كان طليعة غير مسلحة بالأسلحة التقليدية كالبندقية والمدفع، بل بأسلحة تتفوق عليهما في أساليب الفتك، وآثار الدمار، وأعني بذلك دقة التخطيط و مهارة الكيد والتآمر، وقد بدأ الاستشراق بدراسة أحوال العالم الإسلامي باسم الحضارة والمدنية، و قسّم العالم الإسلامي، إلى عربي، وغير عربي، فأما القسم غير العربي فقد كان من السهل تحويل وجهته عن العربية إلى لغاته المحلية، أو إلى لغات استعمارية جديدة، بتأثير التفوق الحضاري، والشاهد على ذلك ما حدث في تركيا إبان الحركة الكمالية كان من تسلط هؤلاء الأوربيين على عقلية كمال أتاتورك، ذلك الذي قطع كل علاقة بين تركيا و العالم الإسلامي، وكان من آثاره تغيير الكتابة التركية من الحروف العربية إلى اللاتينية أملا في إلحاق تركيا بأوربا الذي لم يتحقق بعد [3]. فالدعوة إلى العامية - من جانب المستشرقين و المستغربين – لا تهدف إلا إلى تفتيت المسلمين عامة

---

[1]. أنورالجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 140.

[2]. المصدر المذكور، ص، 143.

[3]. الدكتور عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص، 267- 268.

والأمة العربية خاصة، وإقصاءهم عن القرآن. ولا يتم ذلك حتى يتم التخلى عن اللغة العربية الفصحى التي توحّدهم و تربطهم بينما العامية تمزّقهم وتشتتهم.فلا شك أن لهذا الغزو الفكري خطورته وأهدافه وآثاره مما جعل الغيورين على اللغة العربية الفصحى والحضارة العربية الإسلامية من أهل العلم والدين يأخذون أقلامهم في محاربته وكشف زيفه. فبرز رجال يدافعون عن اللغة العربية الفصحى ساتحدث عنهم في السطور التالية.

الفصحى ومحاربة الخصوم:

مما لاشك فيه أن اللغة العربية الفصحى تحتل مكانة عظيمة لا تحتلها غيرها من اللغات لكونها لغة القرآن و الحديث والتشريع الإسلامي، و وعاء للتراث الديني و سجلا للحضارة العربية، وهي التي تعمل كرابط قوي و وثيق بين "أمم مختلفة الأجناس والألوان والألسنة، من قلب روسيا، إلى الهند، إلى جزائر الهند، إلى فارس، إلى تركيا، إلى بلاد العرب، إلى شمال أفريقيا، إلى قلب القارة الأفريقية وسواحلها، إلى قلب أوربا نفسها – تتلو كتابا واحدا يجمعها، يقرؤه من لسانه العربية، ومن لسانه غير العربية، و تحفظه جمهرة كبيرة منهم عن ظهر قلب، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها. ومن لم يحفظه جميعه حفظ بعضه، ليقيم به صلاته، و تداخلت لغته في اللغات، و تحولت خطوط الأمم إلى الخط الذي يكتب به هذا الكتاب كالهند، و جزرها، وفارس، وسائر من دان بالإسلام، فكان عجبا أن يكون في الأرض كتاب كانت له هذه القوة الخارقة في تحويل البشر إلى اتجاه واحد، متسق على اختلاف الأجناس، والألوان، والألسنة"[1]. ويقول فيليب دي طرازي: أصبح المسلمون بقوة القرآن الكريم أمة متحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها، فقد جمع شتات العرب، ومن المقر أنه لولا القرآن الكريم لما انتشرت الفصحى في الخافقين، ولولا كتابتها ودرسها والتعامل بها، ولولا القرآن الكريم لظل أهل كل بلد من البلدان التي انضمت للإسلام ينطقون بلهجة يستعجمها أهل البلد الآخر، وقد حفظ القرآن الكريم التفاهم بالعربية بين الشعوب الإسلامية وبين العرب[2].

---

[1]. المصدر المذكور، ص، 267.

[2]. أنورالجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 132.

قد عرف أعداء العروبة والإسلام أهمية هذه اللغة العربية الفصحى وبذلوا قصارى جهودهم في هدمها وبث روح الكراهية والازدراء بالنسبة لها، فوقف المحبون للغة العربية الفصحى والغيورون على الثقافة العربية الإسلامية بأقلامهم دفاعا عن العربية الفصحى لا من منطلق ديني فحسب بل لأنها اللغة العملية التي تحمل في طيها ثقافة علمية و حضارة فكرية وثروة دينية لا يمكن هجرها ولا تبديدها.

لذلك نجد "أصواتا منصفة من أوربا نفسها حرّكها شرف العلم أن تنبّه هذه الأمة لما يبيت لها، و تحذّرها من إيقاع أوربا في فكرها و فلسفتها، وصاحب هذا الصوت هو المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي الذي يقول بعد أن انتقد أوربا في تصويرها لنظرية القوميات للعالم الإسلامي: و إننا لنأمل ألا نرى هذه الجرثومة تنتشر في العالم الإسلامي على الأقل" [1]، "إذ هو يعتبر اللغة العربية الفصحى الرباط الوثيق الذي يمنع البلاد العربية من التفكك، من شواطئ الأطلسي في المغرب، إلى حدود فارس الغربية شرقا عند شواطئ الخليج العربي، و من حلب والموصل شمالا، حتى الخرطوم و عدن و مسقط و زنجبار جنوبا، و لم يلقي بالا إلى الذي سماه "لغة التخاطب" وهي اللغة العامية، لأنه يعرف أن أيسر الجهد والصدق والفهم، قادر على أن يجعل الفصحى هي "لغة التخاطب" العامة أيضا، و إن بقي للعامية آثار قليلة متفرقة في طبقات الناس بعد ذلك [2]، وهو يضيف قائلا: "فهل من الضروري أن يجزّأ هذا العالم العربي إلى عشرين دولة مستقلة، تعيش بعزلة تامة، بعضها عن بعض؟ وهل من الضروري حقيقة أن نرى العالم العربي يتفكك و يتجزّأ كما حصل مع الأسف للأمبراطورية الإسبانية الأمريكية؟ إن هذه التجزئة تعتبر من أخطر نقائص حضارتنا الغربية، و سيكون مؤسفا حقا أن نرى الشعوب العربية تنسج على منوالنا في الناحية. هذا هو أرنولد توينبي الذي يحذر العرب بكل أمانة من التورط من تقليد الحضارة الغربية، وإثارة القوميات التي تفرق وحدتهم و تقطع ألسنتهم" [3].

[1]. الدكتور السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام، ص، 45.

[2]. محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار، ج1و2، ص، 189- 190.

[3].الدكتور السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام، ص، 46.

نظرا لخطورة الدعوة إلى العامية ظهر عدد من الكتاب والأدباء من المسلمين والمسيحيين وعارضوها معارضة شديدة و قاوموها مقاومة واسعة، وكشفوا زيفهم، وأوضحوا بأنه لا يمكن أن تعد هذه المعركة بين العامية والفصحى معركة أدبية مجردة من العوامل السياسية والدينية الخفية والباطنة، وأبرزا الآثار المترتبة عليها والمخاطر السيئة الناتجة عنها، وعلى رأسهم مصطفى صادق الرافعي.

فيحذّرنا الرافعي من هدف المستعمرين للدعوة إلى العامية ويقول: "لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته؛ إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطعمن نسَب لغته انقطع من نسب ماضيه، و رجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده؛ فليس كاللغة نسَبٌ للعاطفة والفكر؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشيءعلى لغة، ونشأ الثاني على أخرى، و الثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء. و ما ذلت لغة شعب إلا ذلّ، ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهاب و إدبار؛ و من هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، و يركبهم بها، و يُشعرهم عظمته فيها، و يستلحقهم من ناحيتها؛ فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبّدا؛ و أماالثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا و نسيانا؛ وأماالثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها؛ فأمرهم من بعدها لأمره تبع" [1].

و لذلك نجده أنه قد عارض أي محاولة تهدف إلى انتقاص اللغة العربية، فهو عارض رؤية لطفي السيد التي دعت إلى استخدام المفردات العربية من اللهجة العامية معارضة شديدة و قال: "إن في العربية سرا خالدا هو هذا الكتاب المبين"القرآن" الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصريح و يُحكم منطقا وإعرابا، بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه الزيغ بالكلمة عن وجهها و بالجملة عن مؤداها، و بحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر، ثم هذا المعني الإسلامي "الدين" المبني على الغلبة والمعقود على أنقاض الأمم والقيم على

[1]. مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج3، ص، 29.

الفطرة الإنسانية حيث توزعت وأين استقرت، فالأمر أكثر من أن تؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل، و أعضل من أن يزيله قلم كاتب ولو تتاهت به سن الدهر حتى يلقى من الأمة أربعة عشر جيلا كالتي مرت منذ التاريخ الإسلامي إلى اليوم [1]". فالقرآن عنده جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، والكتاب ثابت فلغته ثابتة، ولا بد من المحافظة عليها في صورتها الأصلية، ولكنه في نفس الوقت لا يعارض وجوب الإصلاح اللغوي لإثرائها بالمفردات والكلمات والمصطلحات بما تسد حاجتها بشريطة أن لا تخرج من القالب العربي الصريح والفصيح [2].

و لما قدم عبد العزيز فهمي اقتراحا إلى مجمع اللغة العربية عام 1944م باتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية، أثارت الدعوة عددا كبيرا من الكتاب للرد عليه و منهم الأستاذ أحمد محمد شاكر الذي قال في الرد عليه فيما قال: "إن هذا الاقتراح تجديد للدعوة القديمة، و استمرار لها، حتي تتمزق وحدة الأمم العربية، ويحال بينها و بين قديمها، فلا يعرفه ولا يصل إليه إلا الأفذاذ من علماء الأثريات، كما هو الشأن الآن في اللغات القديمة؛ فيحال بين الأجيال القادمة و بين القرآن والحديث وعلوم العرب كما يظنون؛ فيندثر هذا الإسلام من وجه الأرض و يطمئن القوم" [3].

ولما دعا الخوري مارون غصن إلى إحلال العامية محل الفصحى ونشر كتابه "حياة اللغة وموتها: اللغة العامية" عام 1926م، وقال فيما قال إن اللغة العربية يحتمل بل يرجح بقاؤها في القرآن إلى منتهى الأزمان، ولكن لا ينتج عن ذلك بقاؤها في البلاد العربية، ردّ عليه الأب صالحاني قائلا: "إن السبب الذي أوقع الكاتب في الخطأ هو أنه افترض في العربية لغتين، الواحدة فصيحة والأخرى عامية. وليس هذا بصحيح لأن اللغة العربية هي واحدة، أما ما يسميه لغة عامية فليس في الحقيقة إلا الألفاظ والعبارات التي يستعملها الكتاب والأدباء، فالعامية

---

1. مصطفى صادق الرافعي: بحت رأية القرآن، ص، 42.
2. ينظر: المصدر المذكور، ص، 42- 48.
3. أنور الجندي: المساجلات والمعارك الأدبية، ص، 37.

نستعملها ممزوجة بالأغلاط. وللعامة أيضا لهجات في الحركات عند التكلم، تختلف باختلاف البلدان شرقا وغربا وجبلا و سهلا و مدنا وقرى" [1].

و من أنصار الفصحى الذين تتجلى أسماءهم في الدفاع عنها هم الدكتور عمر فروخ، والدكتور زكي مبارك، والأب لويس شيخو اليسوعي، والشيخ على يوسف، عباس محمود العقاد، و محب الدين الخطيب، وبروكلمان، و إدوارد دِنيسون روس، و يوهان فك الألماني وغيرهم.

وفي الختام يجدر القول بأنه لا يصح تقسيم اللغة العربية إلى اللغة الفصحى واللغة العامية، ليست هناك إلا لغة واحدة، أماالعامية فهي ليست لغة ولكنها لهجة، وتحريف عن الفصحى وتشويه لها. والاسعمارهو الذي اهتم باللهجات و حاول كل المحاولة لجعلها لغات علاحدة مستقلة بغية تمزيق الأمة العربية وتفتيت الوحدة الإسلامية. وفي الحقيقة اللغة العربية الفصحى هي التي تحتل أهمية استراتيجية على المستوى العالمي، وهي الرباط الديني والثقافي الذي يربط بين الشعب العربي والإسلامي في الأقطار المتباعدة في العالم.وبالعكس لو أصبحت اللهجات لغات مستقلة لأتى يوم أن العرب يحتاجون إلى مترجم للتواصل والتفاهم فيما بينهم. فثبت أن العربية الفصحى بكل خصائصها الذاتية وعراقتها التاريخية ورسالتها الراشدة تليق أن تتمتع بعالمية وتتطلب منا أن نبذل جهودنا المخلصة في الحفاظ عليها من عيون الشر وتطويرها في زمن العولمة.

المراجع والمصادر:

1- أنورالجندي: الفصحى لغة القرآن، دارالكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

2- أنورالجندي: المساجلات والمعارك الأدبية، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية، 2008م.

3- سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1964م.

[1]. أنورالجندي: الفصحى لغة القرآن، ص، 193.

4- السيد رزق الطويل: اللسان العربي والإسلام، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، نوفمبر 1986م.

5- عبد الصبورشاهين: في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة، 1993م.

6- علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة، نهجة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2004م.

7- محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار، ج1و2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1385 من الهجرة.

8- مصطفى صادق الرافعي: تحت رأية القرآن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

9- مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، ج3، المكتبة العصرية، بيروت.

10- معجم الرائد، دارالفكر، دمشق، 1971م.

11- معجم اللغة العربية المعاصرة، دارالكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

12- نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوةإلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة

بالاسكندرية، الطبعة الأولى 1964م.